أبعاد النظرية البراغماتية الحديثة في آثار الجاحظ

Dimensions of Modern Pragmatic Approach in the Works of Aldjahidh

الباحثة: حفيظة بن عبد المالك

جامعة حسيبة بن بوعلبي بالشلف - الجزائر

الملخص:

تعدّ اللسانيات التداولية من أحد الاتجاهات اللغوية التي ظهرت وازدهرت على ساحة الدرس اللساني الحديث والمعاصر، إذ نقلت هذه الأخيرة دراسة اللغة من لسانيات الوضع (بنوية، توليدية) إلى لسانيات الاستعمال في المقامات المختلفة، وبهذا قد جمعت بين الدراسة النصية والسياقية، وهذا ما نلّفه حاضرا في البلاغة العربية القديمة عند الجاحظ، على اعتباره من أكثر العلماء اهتماما بعلوم اللغة العربية لما لها من وقع في نفوس العرب القدماء، إذ أنّ المتفحص لآثار الجاحظ يجده تطرق إلى أبعاد الدرس التداولي الحديث قديما بالتنظير والتطبيق مع اختلاف في تحديد المصطلحات .

وقد أولى الجاحظ أهمية كبيرة لقضايا: المقام (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، الإشارة، مكانة اللفظ، الرمز، وحال المتكلم، كما اهتم مراعاة معارف المتلقي أثناء عملية التخاطب، التي يقابلها في النظرية التداولية: السياق، مقتضيات الكلام (الاستلزام الحوارية - الملاءمة)، الوظائف التداولية، أفعال الكلام، الإشارات، القصديّة، فهذه العناصر تشكّل مجالات مشتركة بين علم اللغة العربية في آثار الجاحظ و اللسانيات التداولية بمختلف جوانبها لدراسة للمعنى حيث يمكن لنا من خلاله أن نطل على علوم اللغة العربية من أبوابها علنا نجد ضالّتنا فيها من جهة التطبيق العملي مناهج اللسانية الحديثة و المعاصرة على الأدب العربي نثرا كان أو شعرا، لكن شريطة ربط هذا الإنتاج العربي ببيئته بدلا من عمليات الإسقاط التي تقوم برؤية التراث العربي عن طريق الثقافة الغربية.

الكلمات المفتاحية: التداولية، المقام، السياق، اللغة، كلام، اللفظ، الإشارة، أفعال الكلام، مقتضى الحال، المتلقي، الخطاب.

Abstract

Pragmatics is a subfield of linguistics which appeared and prospered in the domain of modern and contemporary linguistic studies. It proceeded – in studying language – from conventional (or coded) linguistics (structuralism - generative) to contextual linguistics. Therefore, it has combined textual and contextual studies, and that's what one can find in the ancient Arabic rhetoric, especially in the works of Aldjahidh, one of the most prominent linguists concerned with the Arabic language because of its beauty and special value. When examining Aldjahidh's works, we find that he dealt with modern pragmatic issues both theoretically and practically using different definitions of terms.

Aldjahidh has attached a great importance to those topics: situationality (the conformity between speak and situation), deixis , the situation of speaker, taking into account the addressee's knowledges while interacting. Those topics have their corresponding terms in pragmatic theory: the context, the speech requirements (conversational implicature, convenience), pragmatic functions, speech act, deixis and intentionality. All those elements constitute common domains between Arabic language sciences in Aldjahid's works and pragmatic linguistics to study meaning. Today ,we can – through those works- overlook Arabic language sciences in order to find what we want to know about the practical application of modern and contemporary linguistic methods on the Arabic literature, prose and poetry, provided that we link this literary production with its cultural context instead of reading our Arabic heritage through occidental culture.

Key words: Pragmatics, denominational, context, language, speech, pronunciation, reference, verbs of speech, imperative condition, recipient, discourse.

مقدمة:

كان القرآن الكريم عاملا رئيسيا في وجود الثقافة العربية الإسلامية، لذا ارتبطت حياة لغتنا العربية بهذا الكتاب العزيز، ولأن العرب حاولوا فهمه والتوصل إلى معانيه فقد أوجدوا بذلك علوما لغوية كثيرة إذ قدموا جهودا رائدة في علم اللغة، حيث أنهم ساهموا في المجال اللغوي ببحوث دقيقة تتعلق بجميع مستويات اللغة العربية، وهذا ما أسس لوجود نظريات عربية قديمة تضاهي النظريات الحديثة سواء في العلوم عامة أو في علوم اللغة العربية خاصة نحو: الكتاب لسبويه، وآراء عبد القاهر الجرجاني، وكتب السكاكي و كذا النظريات التي جاء بها الجاحظ في كتبه المتعددة: البيان والتبيين، الحيوان، ورسائله المتنوعة....و غيرها من المؤلفات التراثية التي ساهمت في ظهور علوم ومناهج دراسة اللغة العربية التي أصبحت شائعة ومستعملة في يومنا هذا.

وقد تناول الباحثون العرب الدراسات اللغوية وفق اتجاهين: الدراسات الشكلية للغة و دراسات اللغة في السياق التواصلية، فالأول: تتمثل المدرسة اللغوية النحوية (الخليلية) إذ كان منهج دراستهم منهجا و صغيا سكونيا، أما الاتجاه فهو الاتجاه التواصلية فقد اهتم بدراسة اللغة أثناء استعمالها أي بمراعاة الجانب السياقي وهو ما يمثل النظرية التداولية حاليا، وقد أصبحت في يومنا هذا من أهم المناهج الوظيفية لدراسة اللغة، وهو عند الكثيرين منهج غربي النشأة والمصطلح إلا أننا إذا عمدنا للبحث عنه عند العرب القدامى فسنجد جذوره ضاربة و متوغلة في الدراسات البلاغية العربية منذ القدم، وهو الموضوع الذي يدور حوله البحث هاهنا، حيث أن الإشكالية المطروحة هي: ما هي أهم مظاهر الدرس التداولي عند الجاحظ؟

ما هي أهم إجراءات دراسة اللغة التي أسس لها الجاحظ من منظور تداولي؟

هل يمكننا اعتبار الجاحظ من أهم مؤسسي النظرية التداولية عند العلماء العرب؟

- مفهوم التداولية :

للتداولية مفاهيم عديدة في الدراسات المعاصرة، وتشير هذه المفاهيم إلى الجانب الاستعمالي للغة في السياقات المختلفة، وتعني أيضا مجاوزة البنية اللغوية إلى الوظيفة الإنجازية، وهي ذات منطلق فلسفي، تحاول معالجة القضايا من منظور علمي، وتدرس التداولية أيضا كل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمستمع، مركزة على البعد الحجاجي الإقناعي في الخطاب .

ومن التعريفات المقدمة للتداولية : أنها دراسة في شرائط استعمال اللغة، أو أنها دراسة للمعنى التواصلية أو المعنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله .¹
لا يمكن حصر اللسانيات التداولية في "أوستين" أو "بيرس" أو "موريس" فالجهود التي تضافرت لتأسيس صرحها متعددة و كثيرة، ومن الصعب التطرق لها كلها في هذه المداخلة، فالتداولية تداوليات انطلاقا من: أريستو، وماركس وسوسير وبييرملن و باختين و أبوستيل و ديكر و اسكومبر و هارمان و فريج و كرايس و هنسون .

إذا كانت التداولية في أشمل تعريفاتها حسب "آن ماري ديلر" Anne Marie diller و "فرنسواز ريكانتي" Francois Ricanti : "هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية".²
فهي لا تبحث في تراكيينا وتخضعها لميزان الخطأ والصواب شأن النحو، لكنها تهتم بما نقوله أثناء التواصل، فهي تهتم بالغة باعتبارها ظاهرية تخاطبية وتواصلية بحق، وعلى هذا الأساس فهي تبث النفس مرة أخرى في المخطط الوظيفي لجاكسون و تهتم بوظيفة التأثير، ويتجلى هذا في فكرة "أوستين" عندما : (ساوى بين بنية اللغة وبنية الفكر في محاضراته التي نشرت عام 1962م بعد وفاته بعنوان : "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ " فاللغة في مفهومه تجاوزت وظيفة التأثير، و تغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية)³ .

مفاهيم الدرس التداولي عند الجاحظ:

لاشك أن أكبر معتزلي درس شؤون البلاغة هو الجاحظ (ت 255هـ)، فتراه في كتابه "البيان و التبيين" يطيل القول فيما أثاره بشر بن المعتز من ضرورة ملائمة الكلام للسامع و لطبقات السامعين والحديث عن رشاقة و رصانة و جزالة و عذوبة اللفظ والوسطية بين الإغراب والاعتدال، بالإضافة إلى لأصول الوحدة العضوية في القصيدة،⁴ كما أطال الكلام في مواطن الإيجاز والإطناب وربط بينهما وبين الأغراض (المقاصد) ومقامات المتلقين، مع تعرضه إلى السجع و الازدواج و الاقتباس، التقسيم واللغز والأسلوب الحكيم والاحتباس والهزل يراد به الجد والاعتراض و التعريض، والكناية والاستعارة، كما تضمن كلامه في الحيوان إشارات إلى الحقيقة والجواز والتشبيه والاستعارة..... إلى غير ذلك من الأدوات الإجرائية البلاغية، وهكذا استحق أن يكون بمثابة المؤسس الفعلي للبلاغة العربية.⁵

كما يستحق الجاحظ منزلة المؤسس الأول للنظرية التداولية عند العرب لأنه: "تمكّن بمنهجية عقلانية ناضجة من تمثّل آراء السابقين من علماء الشعر و تجريدها و صهرها ضمن نظرية متماسكة هي نظرية المقامات التي تمثل مسلكا من أبرز المسالك إلى اكتشاف خصائص نظريته الأدبية و الجمالية بشكل عام"⁶.

ولعل القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي و الأصيل الذي اغترف الجاحظ منه هذه الفكرة، و قد أورد الجاحظ عي عدّة مواضع من البيان والتبيين إشارات كثيرة تشيد بكلام الله، باعتباره أبين كلام و يحتل الصدارة الحقيقية من حيث كل المناحي و الأوجه، ويقول في هذا الصدد: " وأبين الكلام كلام الله هو الذي مدح التبيين و أهل التفضيل"⁷. فالقرآن الكريم يبيّن المعنى ويفصل الجمل " و أنزل عليه قرآنا عربيا...⁸

و من بين الإشارات الدالة على اغتراف و تأثر الجاحظ بالقرآن الكريم و جعله المصدر الحقيقي لولادة فكره، وخاصة في نظرية " المقامات"، تلك العبارات التي نلفيها متناثرة في طيات مؤلفه "البيان والتبيين"، يقول مثلا و هو يتحدث عن الشروط التي ينبغي توافرها لتحقيق الفصاحة في الكلام، " فقد تستحق الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بها بذلك منها، ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضوع العقاب، أو في موضوع الفقر والعجز والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون الشغب و يذكرون الجوع في حالة القدرة و السلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الإنتقام، والعامّة أكثر والخاصّة لا تفرّق بين ذكر المطر و ذكر الغيث، والقرآن الكريم إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، و إذا ذكر سبع سماوات لم يقل إلا الأرض فلا يجمع الأرض أرضين و لا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، فلا ينتقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال⁹، وعليه فإن الأمر الذي يذهب بحلاوة اللفظ و فصاحته و هو استعمال الألفاظ في غير موضعها و هو أمر حسب (الجاحظ) كثيرا ما يجري على أفواه العامة الذين يجهلون أسرار الإعجاز القرآني .

كما يقول في موضع آخر في كتاب الحيوان: " ورأينا الله تبارك و تعالى إذا يخاطب العرب والأعاجم أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحي و الحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا و زاد في الكلام، فأصوب العمل إتباع آثار العلماء و الاحتذاء على مثال القدماء والأخذ بما عليه الجماعة"¹⁰، وبالتالي فإن الإبانة مرتبطة ارتباطا بمقتضيات المقام، بحكم أن تغير المخاطبين يؤدي مباشرة إلى تغيير شكل الخطاب و خصوصياته، فمعاني القرآن الكريم تدرك و تفهم من طرف العرب والأعراب لمحا، لأن كلام الله نزل بلغتهم الأصلية و أساليبهم الخاصة في الكلام - وإن القرآن الكريم لا يضاهي و لا يشبه و لا يقارن بكلام البشر - أما بني إسرائيل لا يمكن لهم فهم و استيعاب معانيه و ألفاظه، إلا عن طريق الإطناب المبسوط، وعدم اللجوء إلى آليات فنية بلاغية من شأنها خلق نوع من اللبس والغموض كالحذف و الإشارة.....

لقد قرن الجاحظ مفهوم البيان بالفهم والإفهام " باعتبار أنّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل و السامع إليهما إنما هي الفهم و الإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"¹¹.

وما من شكّ من أنّ الفصاحة التي يتحدث عنها الجاحظ ها هنا إنّما تحتل من الفهم والإفهام منزلة الروح من الجسد، لذلك دأب في عدة مواضع من كتابه "البيان و التبيين" على إعداد توصيات تدعو إلى تهذيب الألسنة بالتدريب والمعالجة حتّى يستقيم المنطق و تسلسل العبارة و الابتعاد عن التكلف وكلّ أمر يطمس معالم الفصاحة وجوهرها، المؤدبة بدورها إلى سير سليم لفعاليات التّواصل السّليم المبني على فهم كلّ ما يقال في صلب العملية التخاطبيّة.

إنّ قضية الإفهام ترتكز -عند الجاحظ - على معايير تستقي من الحيز الاستثمالي لمقولة " لكلّ مقام مقال " فكل إطار تواصللي لامعّين خليق بأن يرمي بتأثيراته على مسألة اختيار إستراتيجية تداوليّة معيّنة تتطابق و تتناسب معه، لذلك يقول " و رأى أن ألفاظ المتكلمين ما دمت خائض في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام، فإنّ ذلك أفهم لهم عني وأخف لمؤنثهم علي و لكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تزلق بصناعتهم إلا أن كانت مشكلا بينها و بين تلكم الصناعة، وبيع بالمتكلم أن يفترق إلى ألفاظ المتكلمين في خطة أهله وعبده وأمه أو في حديثه إذا تحدّث أو خبره إذا خبر، و كذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب و ألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل. فلكل مقام مقال و لكلّ صناعة شكل. "12 بمعنى أن لكل صناعة ألفاظ معيّنة تنتقي من معجم فكري (خاص بالبيع) يتلاءم و تلك الصناعة ممّا يفرض على البليغ المتكلم إتباع إستراتيجيات تداولية انتقائية للكلمات والعبارات يتمّ من خلالها تحقيق نوع من المرونة والتناسب مع الظروف الحضارية و الثقافية و الطبقيّة و الموضوع المتحدث فيه، بالإضافة إلى اعتبارات المتلقي و اهتماماته التي لا بد من استصحابها في عملية إنتاج الكلام البليغ.

ومن هذا المنطلق، جاز القول أن مقولة " لكلّ مقام مقال " أو " لكلّ كلمة مع صاحبها مقام " أو " مطابقة مقتضى الحال " هي من جوامع الكلم التي تصدق على دراسة ومقارنة المعنى لا في العربية الفصحى فحسب بل على كل اللغات¹³، على أساس أن المتكلم مهما كان جنسه و توجهه، ومهما كانت لغته مضطر إلى إحداث نوع من التوافق بينه وبين متلقيه المربوط بدوره بعدة حيثيات وظروف من خلال خلق تطابق بين كلامه في بعده الإستراتيجي التداولي والمقام المحاصر للعملية التخاطبيّة من كل الزوايا و الروافد، كما أن المتلقي يجد نفسه -كذلك- مجبرا بالإمام الشامل والإحاطة التامة بكل حيثيات و الجزئيات المشكلة للمقام، سعيا إلى الوصول إلى تحقيق تأويل حقيقي، مناسب لما قيل. وعليه فإن عملية تحليل الوظائف اللغويّة وفق المستويات الصّرفية والصوتية والنحوية و المعجميّة ليست كفيلا - وحدها - للوصول إلى المعنى المراد (القصدية)، بل تلزم الحللّ /المتلقي الوقوف على كلّ صغيرة وكبيرة تمت بصلة وثيقة بالعنصر الاجتماعي المحيط بالعملية التواصلية برمتها والمتمثل في المقام¹⁴، فالتعامل مع الكلام من زاوية كونه عمل منعزل عن سياقه الخاص، يعدّ نوعا من العبث الذي من شأنه أن يحدث عوائق و ملابسات سلبية تأخذ بالتأويل السّليم إلى دائرة اللبس والغموض، وبالتالي الإخفاق في التّواصل الفعّال و الإيجابي .

ووفق هذه العتبات التصورية، وانسجاما مع ما ذكرناه في مسألة تعاطي الجاحظ مع الفصاحة والبيان، يمكن الجزم أن المقام يحتلّ مرتبة رصينة و موضعا مهمّا في الفكر البلاغي العربي، وهو ما يتمثل إلى حدّ بعيد مع تنظيرات الدّرس التداولي المعاصر، الذي يعتبر المقام ركن ركين لا يمكن تجاوزه في أيّ مقارنة لغوية باحثة عن المقاصد والأغراض، حيث حظي سياق القول Le contexte بدراسات و مقاربات مستفيضة ألّمت به من كل حذب و صوب من لدن الباحثين التّداوليين، الشيء الذي جعل منه يأخذ طابع التّفصيل و تعدّد المستويات¹⁵.

1- السياق الظرفي: والمتمثل في الظروف الفيزيائية المباشرة للمشاركين في العملية التواصلية مثل (المكان، الزمن، وطبيعة التواصل).

2- سياق الموقف: و المتمثل في الظروف الثقافية للخطابات.

3- سياق التفاعل: و يتمثل في أشكال الخطابات ونظام الإشارات المصاحبة.

4- السياق الافتراضي: و هي مجموعة القنوات والقيم المشتركة بين البّاث والمتلقي.

كما أن المقام حسب "قوست" Coste و"قاليسون" Glisson من الآليات المهمّة التي تفرض نفسها على المتكلّم، إذ يجد نفسه ملزما بالأخذ به في العمليّة الخاصّة بلملمة خصوصيات الإستراتيجية الواجب إتّباع إملاءاتها باعتباره " مجموعة شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معيّن، يستمدّ وجوده من شخصية المتكلّم و مستمعه أو مستمعيه، ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما¹⁶، وعليه يمكن القول أنّ هذا التنظير المتعلّق بالسياق و تفصيلاته و جوهره يتطابق إلى حد بعيد مع تخرّجات الجاحظ المتعلّقة بالشروط والتوصيات الخاصّة بالعمليّة الإنتاجية للكلام، هذا من جهة .

كما يظهر أفق تداولي واضح في تخرّجات الجاحظ، ويتمثل كنهه في تسهيل العمليّة التأويلية من قبل المخاطب، وهو بصدد محاولة البحث عن التفسير و التأويل المراد من أي صيغة لغويّة، بحكم أن المنطوقات اللغويّة لا تفهم و هي منعزلة عمّا سواها، بل تبقى في حاجة ماسّة إلى الحثيات والظروف المحيطة بها، والتي قد تكون شخصيّة أو ثقافية أو تاريخية¹⁷.

كما يظهر من هذه العناية الفكرية التي استنطقت المقولة لكل مقام مقال عند الجاحظ ومضات تداولية صريحة، وبالضبط في تلك المساحة التي يحاول البليغ من خلالها تحقيق التلاؤم بين الألفاظ والصياغات وطريقة نظمها مع اهتمامات السّامعين ومستوياتهم الثقافية والطبقية، وعليه يجوز القول أنّ الأساليب والتعبيرات الفنيّة واضحة بأنماط المتلقين، على أساس أنّهم ينتمون إلى طبقات مختلفة سواء كانت معرفية أو اجتماعية....

وبذا فإنّ المرسل إليه دور طلائعي في تحديد الإستراتيجية الخطابية و بنائها " فبناء الخطاب و تداوله مرهون إلى حدّ بعيد -بمعرفة حاله أو بافتراض ذلك الحال-¹⁸ بمعنى أن الافتراض السّابق هو مفهوم نلفيه نفسه في التعليمات والشروط الأساسية التي نجدّها بمثابة ضوابط و دعائم أساسية في مسألة بناء الخطاب البلاغي العربي.

ولعلّ جهود الجاحظ التي اختصت بمعالجة أنواع الدلالات على المعاني و تقسيماتها كفيّلة بمدّ جسور تماثلية بين الفكر البلاغي العربي والتنظيرات التداولية خاصة في تلك المنطقة المعينة بتنظيم التواصل الفعّال بشكل عام و ضمان سيرورته، إذ مثل هذا الأخير (الجاحظ) معلما بارزا في استيعاب طبيعة التواصل كضرورة اجتماعية¹⁹، حيث توصّل بفضل فكره الثاقب و نظراته الفاحصة : أن اللغة باعتبارها علامة لسانية أو أداة بيان، ليست هي أداة البيان الوحيدة، بل تعتبر الإشارة والعقد والنسبة من الآلات البيانية بالإضافة إلى الخط الذي يعدّ مشكلا من أشكال اللفظ، حيث يقول: وجميع أصناف الدلالات على من لفظ أو غير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد : أولها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخط ثمّ الحال التي تسمّى نسبة²⁰

لقد كان هذا التصنيف الخاص بمسألة أصناف الدلالات على المعاني، ظللا تداولية بالدرجة الأولى، إذ تلقى الدرس التداولي ينحو بآلياته و ميكانيزماته في التحليل التداولي نحو تلك المساحة المهمة بالاعتبارات غير اللغوية في العملية التخاطبية فضلا عن الاعتبارات اللغوية. " إذ ينتبه ألى مختلف الوسائط التعبيرية، أو فنقل ما يكون من اللّغة في أداء دور الإفهام، والتعبير عن المعنى المراد إيصاله"²¹، و بالإضافة إلى هذه الميزة ذات البعد التداولي، يمكن القول أنّ هذا التصنيف يأخذ نصب عينه الظروف و الملابس الطبيعية و الثقافية و الحضارية التي تحيط بالحقل الإنتاجي للعلامة، و لشيء من التوضيح سأحاول تبسيط هذه المفاهيم فيما يلي :

1- اللفظ: يقول فيه الجاحظ : " والصّوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع"²² أي هو التعبير عن المعاني بواسطة الصوت، أو بمعنى آخر هو تلك العلامة اللغوية التي تكون محل تواضع و اصطلاح بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد و تتكون هذه الأخيرة من دال ومدلول أي من صورة ذهنية وصورة سمعية وهو ما يقابل التواصل اللفظي في الدراسات التواصلية المعاصرة، ويتم هذا النمط التواصلية عبر القناة الصوتية وصولا إلى القناة السمعية²³ بمعنى هو عبارة عن مجموعة من الوحدات الخطابية تتكون حسب "أندريه مارتنيه من وحدات الصوت (الفونيم)، ووحدات المقطع (المونيم) ووحدات المعجم، ووحدات التركيب، هذا من جهة، وفي المقابل يمكن أن نطابق بين ما يعنيه الجاحظ باللفظ والأفعال الكلامية بكل أشكالها و تصنيفاتها بحكم أنّها تنطلق من التلفظ بها في سياقات مختلفة .

2- الخط: ويحتل هذا الأخير المرتبة الرابعة في تصنيف الجاحظ للآلات البيانية، ويتميز هذا الصنف البياني بقدرته على تجاوز الزمان والمكان " اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد و الغائب، وهو الغابر الخائن، مثله للقائم الراهن"²⁴ يريد الجاحظ القول ها هنا أنّه إذا كان اللسان مقصورا على إبلاغ الحاضر في الزمان والقريب في المكان، فإنّ الخط مطلق، حيث أنه له القدرة على إعلام الغائب في المكان و المسبوق في الزمان .

عند هذا الحد يمكن الجزم أنّ ثمة تطابق بين هذا الصنف البياني الجاحظي و ما يسمّى بالتواصل الكتابي في الدراسات التواصلية المعاصرة²⁵ و يتخذ هذا الأخير في المقاربات المتعلقة بالمهمة بالتواصل - من الكتابة وسيلة مهمة و فعّالة في عملية التواصل، حيث تنظر هذه المقاربات إلى الكتابة بوصفها فعلا إزاميا لا بدّ من استخدامه في بعض الظروف القاهرة التي تنبع من قصديّة الباث، و من بين هذه الظروف و الغايات التي نلغيها تفرض إزاميتها في قضية التقيد بالمنهج أو (التواصل) الكتابي و تجاوز التواصل اللفظي²⁶:

- عندما لا نريد استجابة مباشرة .

- عندما تكون رسالة تواصلية معقدة و مفصلة .

- عندما نحتاج إلى سجل دائم أو مرجعية دائمة يمكن العودة إليها في أي ظرف من الظروف المستقبلية.

3- الإشارة: أما إذا انتقلنا إلى الإشارة، فنجد الجاحظ يفصل فيها باعتبارها صنفا مهما من أصناف الدلالات على المعاني، وهو يقصد بها تلك الإشارات الجسدية أو الإيماءات الدالة، وقد تكون " باليد و بالحاجب و المنكب، وإذا تباعد الشخصان، وبالثوب و بالسيف، وقد يتهدد رافع السوط و السيف، فيكون ذلك زاجرا، و مانعا، و رادعا، ويكون وعيدا و تحذيرا"²⁷، و من بين سماتها الأساسية تعميق القيمة التعبيرية و القدرة البلاغية للملفوظ البلاغي، ووفق هذا الطرح تغدو الإشارة آلة بيانية تتماشى بل و تتماثل مع ما أقرته التنظيرات اللغوية الحديثة و المعاصرة، حيث حظيت الإشارة ببحوث كثيرة و مقاربات لا تعد و لا تحصى، و لاسيما في ذلك المجال المعنى بالتواصل . يقول "تودوروف" : " إنَّ التبليغ لا يتم بواسطة العلامات اللسانية وإنما بوسائل رمزية تحيط بهذه العلامات، و تحف بها من كل جانب"²⁸ بصيغة أخرى إنَّ ضمان العملية التواصلية الفعالة و الناجحة مرهون بتوظيف وسائل رمزية (كالإشارة) على غرار اللفظ أو الفعل الكلامي، حيث تزداد القوة الإنجازية لهذا الأخير بحضور عوامل عدة (كالتنعيم و التبر و التقدم و التأخير في التراكيب اللغوية...) في الخطاب، و خاصة الإشارة التي تلعب دورا محوريا في عملية التأثير في المخاطب.

كما تظهر من خلال المعاينة المتجهة نحو سير أغوار الإشارة و وظائفها - من طرف الجاحظ - أنَّ لب هذه الآلية البيانية موجود في تلك المساحة المبسطة المعنوية بإقامة دور فعال يضبط سير التخاطب الناجح المبني على خصوصيات ذات أبعاد إستراتيجية، إفهامية، وهو ما يسعى الدرس التداولي إلى إبرازه من خلال تنظيراته و مفاهيمه كما أسلفنا الذكر. فالإشارة من هذا المنطلق تغدو من أدوات البيان التي يلجأ المتكلم البايغ لاستخدامها و الاستعانة بها لزيادة الدلالة على معنى لا يستطيع اللفظ التعبير عنه، بل كثيرا ما يستعملها وحدها بمعزل عن اللفظ، لكنها في أغلب الأحيان تنصهر مع اللفظ حتى تصبح وحدة كاملة غير قابلة للانفصال، وهذا ما تنبه إليه الجاحظ في قوله: " الإشارة و اللفظ شريكان و نعم العون هي له و نعم الترجمان هي عنه، و ما تنوب عن اللفظ و ما تغني عن الخط"²⁹ و في هذا دلالة واضحة لا تتخللها شوائب أنَّ الجاحظ يملك إدراكا عميقا مكنه من تحديد العلاقة التي تربط التواصل اللفظي مع التواصل غير اللفظي و ربما - وبشيء من التأويل - كان فهمه العميق لطريقة عمل الإشارة هو ما أوصله إلى هذا الإدراك العميق و التصور ذو الأفق الواسع، و يمكن بسط طريقة العمل الإشارة من خلال وظائفها الأساسية مثل معاونة الإشارة للفظ و التعبير عن معان لا يستطيع المرء معها استخدام اللفظ، و التعبير عن الاستجابات العاطفية³⁰ و كل هذه الجوانب مرتبطة ارتباطا شديدا بتعزيز أسس التفاعل الإيجابي السليم، وهو ما وقفت عليه التداولية بالتحليل و المدارس و هي في مجال زرع الشروط و التوصيات المتعلقة بنجاح الفعل الكلامي ضمن الأطر التخاطبية، تجنبا للغموض و اللبس، و بالتالي تحقيق الوظائف المنوطة باللغة في بعدها الاجتماعي (الوظيفة التفاعلية و التعاملية)، و تحقيق الغاية الإقناعية و الإفهامية على حد سواء .

4 - التّصبة : حيث يقول الجاحظ في تعريفها : " هي الحال النّاطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت و ناطق، وجامد ونام ومقيم وطاقن و زائد وناقص"³¹ بمعنى أنّها آليّة تؤدي دور الكلام في الدلالة على المقصود، وتلمس الأمور المخفية في النفس الإنسانية، وهي هيئة دالة على نفسها من غير واسطة، و التي يتوصل الفكر إليها من خلال التفكير والتدبّر و التفكير في خلق الله.

و بقليل من التفحص و المعاينة يمكن أن نستشف أنّ هذا المفهوم يدخل ضمن نطاق واحد من أقسام العلامة في معتزك السيميولوجيا الغربية ألا وهو الرمز، الذي يمكن أن يصل إلى كلّ ما يستطيع العقل البشري أن يدركه، ويقوم هذا المفهوم على مبدئين هما: مبدأ التوافق القياسي ومبدأ النداعي الطبيعي للأفكار، و يتحقق حين يكون الطرف الأوّل في الرمز (الدال) متواجدا في العالم الواقعي، ويكون الطرف الثاني (المدلول) من التجريدات³².

وما يلاحظه الباحث المتفحص و المقارن في هذا الصّدّد أنّ "النصب" تتماثل مع مفهوم " الأنساق الدلالية الطبيعية" المعتمدة في الدراسات التّواصلية المعاصرة، والمقصود بهذا المفهوم تلك الأنساق التي توجد في حضن الطبيعة، ومن سمات هذه الأنساق أنّها غير مؤسّسة، فالإنسان هو الذي وظفها داخل مجال الدلائل و أسند إليها دلالات معينة، كما يمكننا القول أنّ بشكل عام أنّ هذا التخريج البلاغي الجاحظي المتعلق بالأصناف الدلالية هو مرآة عاكسة للوعي العميق و الفطنة العالية التي انتابت فكر الجاحظ و ذهنيته في معرفة السّياق التّواصلية و العوامل التي ينهض عليها لدرجة أنّه حاز على قصب السّبّاق (مقارنة مع الدارسين المعاصرين) في "جعل السّياق معتمدا على اللفظ والإشارة و الصوت والحال، وهو ما عرف بالسّياق اللغوي و غير اللغوي"³³.

ومما سبق ذكره نخلص أنّ البحث اللغوي العربي زاخر بالإشارات التي توحى بأنّه منظم بطريقة منهجية وأدائية تمكن من خلالها التطرق إلى نظريات و مفاهيم لم تظهر عند الغرب إلّا حديثا وخير مثال على ذلك الجاحظ الذي زرع بذور الدرس التداولي بمظاهره وأبعاده و طريقة تناوله للناتج اللفظي والإشاري وحتّى الرّمزي، حيث يمكن لنا من خلاله أن نطل على نافذة اللغة العربية من أبوابها عسّانا نجد ضالّتنا فيه من جهة التطبيق العملي للمناهج اللسانية الحديثة و المعاصرة على الأدب العربي نثرا كان أو شعرا لكن شريطة أن نربط هذا الإنتاج العربي ببيئته بدلا من عمليات الإسقاط التي تقوم فيها برؤية التراث العربي عن طريق الثقافة الغربية.

قائمة المصادر و المراجع:

أحمد الوردني : قضية اللفظ و المعنى و نظريّة الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن السابع هـ /13هـ، دار الغرب الاسلامي، المجلد الثاني، الطبعة 1، بيروت 2004.

1- أحمد جليل : المدخل في دراسة البلاغة العربيّة، دار الطليعة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

2- تمام حسن : اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، ط4، القاهرة، 2003.

3- الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون : الجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3، بيروت، 1969، ج1،

ص94.

- 4- الجاحظ : الرسائل الأدبية : رسالة تفضيل النطق على الصّمت، دار مكتبة الهلال، ط3، 1995م .
- 5- الجاحظ أبو عثمان ابن بحر : البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، 1985.
- 6- الجليلي دلاش : مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).
- 7- خليفة بو جادي : في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم) بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م .
- 8- شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ، دار المعارف، الطبعة 6، القاهرة (د.ت)
- 9- صالح خليل أبو إصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال، دار آرام عمان، الطبعة 1، 1995، ص 72.
- 10- الصغير بناني : النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجزائرية .
- 11- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط1، 2004م.
- 12- فرنسواز أرمينيكو : المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، 1986م .
- 13- محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية، دراسة حول المعنى و إخلال المعنى، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، 1993.
- 14- محمد يسري عبس، الاتصال والسلوك الإنساني، رؤية في انتروبوجيا الاتصال، البيطاش سنتر، الإسكندرية، (د.ت) .
- 15- نادية رمضان النجار، اللغة و أنظمتها بين القدماء و المحدثين، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية (مصر)، 2004.
- 16- نواري سعود أبو زيد : في تداولية الخطاب الأدبي : المبادئ و الإجراء، بيت الحكمة، ط1، الجزائر، 2009.
- 17- جميل حمداوي المعز : التواصل اللفظي و غير اللفظي www.pulpitALWATANE VOICE .COM

19 -Voir .Marie Amine paneau -George Elia sarfati (2003).les grandes théories de la linguistique. De la grammaire comparée à la pragmatique. Edition Armand colin .paris.2008/2009.

الهوامش:

- ¹- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط1، 2004م، ص22.
- ²- فرنسواز أرمينيكو : المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، 1986م، ص 8
- ³- خليفة بو جادي : في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم) بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص 53.
- ⁴- أحمد جليل : المدخل في دراسة البلاغة العربية، دار الطليعة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص91.
- ⁵- ينظر : شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ، الطبعة السادسة، القاهرة، ص369.

- 6- أحمد الوردني : قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن السابع هـ /13هـ، دار الغرب الاسلامي، المجلد الثاني، ط1، بيروت، 2004ص765.
- 7- الجاحظ أبو عثمان ابن بحر : البيان و التبيين، تحقيق : عبد السلام هارون، ط5، سنة 1985، ج1، ص 273.
- 8- الجاحظ : الرسائل الأدبية : رسالة تفضيل النطق على الصمت، دار مكتبة الهلال، ط3، 1995م، ص 305.
- 9- الجاحظ : البيان و التبيين، ج1 ؛ ص 60.
- 10- الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون : المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3، بيروت، 1969، ج1، ص94.
- 11- الجاحظ : البيان و التبيين، ج1، ص71.
- 12- الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، ص 369/368.
- 13- ينظر : تمام حسن : اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، ط4، القاهرة، 2003، ص 372.
- 14- محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية، دراسة حول المعنى و إحلال المعنى، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، 1993، ص 118.
- 15- Voir .Marie Amine paneau -George Elia sarfati (2003).les grandes théories de la linguistique. De la grammaire comparée à la pragmatique. Edition Armand colin .paris.2008/2009.p 24
- 16- الجيلالي دلاش : مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت) ص 41.
- 17- ينظر:نادية رمضان النجار، اللغة و أنظمتها بين القدماء و المحدثين، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية (مصر)، 2004، ص 233.
- 18- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص47.
- 19- ينظر : صالح خليل أبو إصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال، دار آرام عمان، الطبعة 1، 1995، ص 72.
- 20- الجاحظ :البيان و التبيين، ج1، ص 76.
- 21- نواري سعود أبو زيد : في تداولية الخطاب الأدبي : المبادئ و الإجراء، ص 39.
- 22- الجاحظ : البيان و التبيين، ج1، ص 97.
- 23- ينظر جميل حمداوي المعز : التواصل اللفظي و غير اللفظي www.pulpitALWATANE VOICE .COM
- 24- الجاحظ : البيات و التبيين، ج1، ص 80.
- 25- ينظر : محمد يسري عبس، الاتصال والسلوك الإنساني، رؤية في انثروبوجيا الاتصال، البيطاش سنتر، الإسكندرية، ص 169.
- 26- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
- 27- الجاحظ : البيان و التبيين، ج1، ص 83-84.
- 28- الصغير بناني : النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجزائرية، ص 246.
- 29- الجاحظ :البيان و التبيين، ج1، ص 78
- 30- ينظر :صالح أبو الإصبع، الاتصال و الإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص 45.
- 31- الجاحظ : البيان و التبيين، ص81.
- 32- ينظر نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، ص40.
- 33- نادية رمضان النجار : اللغة و أنظمتها بين القدماء و المحدثين، ص205.